الخاتمة

مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية نمط متميز من الفن الشعري حذقاً ومهارة ومَعْلَمة في الحذو والاحتذاء، وصورة تنبض بالصلابة والوقار. وهو يحقق لنا قراءة الواقع الطبيعي والتاريخي والفني في ضوء معايير الجاهليين.

ولهذا فالقضية أكبر بكثير من ظاهرة التقليد التي نجد إشارات إليها في الشعر ذاته، وأعظم من مسألة الزمن التي حُدِّدت بنحو مائة وخمسين سنة قبل الإسلام. وإذا لم يستطع المرء الجزم بتحديد ذلك فإنه يرى أن محاولات كثيرة سبقت القصيدة الجاهلية حتى جاءت على هذا الوجه. ومثل هذا ينطبق على مشاهد الحيوان فلا شك أن هناك صوراً مبكرة لدخول الحيوان في القصيدة كانت قد بُذلت.

ومن هنا تعددت أشكال مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية وإن لم يتفرد غالباً بقصائد خاصة، لأنه جاء ليقدم فائدة لموضوعات أساسية كان الشاعر قد انطلق منها في القصيدة، ولكن هذا المشهد يعد أكثر نضجاً وأعمق فهماً لتلك الموضوعات. فمشهد الناقة يثبت أنه قدّم الإبل في إطارين، إما إزهاقاً للمال وهي أنفسه وهذا أعظم الفخر، وإما نزولاً عند لواعج الفراق والارتحال، فكانت تصغي إلى حديث المرتحلين لعلها تجد لذاتها مكاناً لائقاً في هذه المناجاة. وهذا يقود إلى أن مشاهد الناقة مع حيوان الوحش جاءت صورة من مفهوم القوم حول تنازع البقاء وتصدع الشمل.

وفوق ذلك كله شاركت الإبل في القتال على قدم المساواة مع الخيل والمقاتلين. أما مشهد الخيل فإنه يضج بأبعاد إنسانية وتعاطف عظيم يُكنُّه الجاهليون للخيل التي عُدّت مظهراً حضارياً لديهم، وقد ذكرها الشعراء في أوقات الاستعلاء، فهم يعيدون بها المال ويأتون بالنَّهْب، فهي حصن العربي ومروءته في الحرب، وإحدى مظاهر زينته ولهوه في السلم، في الصيد والسباق.

ولهذا بدت الخيل شكلاً من أشكال العزة العربية يحمي بها الجاهلي المال والعيال فلا غرو أن يؤثرها على نفسه حين اشتداد البأس، فارتفعت لتمثل شرفه وروحه. وليس هذا فحسب، بل قدّم مشهد الخيل صفات مقدرة ومختارة للخيل عُني بها الشعراء أشد العناية فغدت مقياساً للجمال الفني، إذ جمع أحدهم من كل

obeikandl.com

حيوان أحسن ما فيه واستعاره لها، ونسق ذلك على شكل بديع. فلو أراد فنان أن يعيد تشكيل ذلك على عين منا لما أتى بأفضل مما جاؤوا به. وبذلك كله حق لها أن يصنع العرب شجرة أنساب تعادل ما فعلوه بأنفسهم وتعلو عما صنعوه في أنساب بعض حيواناتهم كالإبل والكلاب.

وجاءت مشاهد بعض الحيوانات كالبقر الوحشي والطير في شكل من التصوير المجازي فكانت مثلاً وعبرة تُضرب للدهر في بعض الأحيان.

ومن هنا قدم الفصل الثالث "مشاهد الطير والشاء" جملة من النتائج دلت على تقدير العرب للحياة البرية فلم يعتدوا عليها لمجرد العدوان والعبث بل احترموها أيما احترام ودلوا على نوع من الارتقاء الحضاري المبكر ونمط من التعامل الإنساني الفريد، دون أن يُهملوا مشاكلة الصفات بين الظباء والنساء، وتشكيل الحياة في الأطلال. وكأن الجاهليين أبَوا أن يدمروا الحياة في مساكنهم، ولهذا أسكنوا فيها حيوان الوحش وطفقوا يتحدون مظاهر الفناء، بعد أن شرعوا يبحثون عن ملامح المصير.

ويقود الفصل الرابع "ذوات الناب والزواحف والحشرات" إلى أن الحيوان ولو كان مفترساً عُدَّ مظهراً من مظاهر التفكير والتجربة، وصورة من حياة التبدي. وأسس نوعاً من العلاقة بهذه الحيوانات دلت على خبرة دقيقة بالطبيعة الحية والجامدة. وقد جعلها الجاهلي مصدراً ثراً في إغناء حياته وفنه وقيمه الشعرية.

وبهذا كله طبع الحيوان على نوع من السلوك تمثل به الجاهلي وجعله مادة له تُعينه على التأمل. فمشهد الحمر الوحشية رسم أشكالاً من أشكال التعامل في الأسرة العربية وظهر فيه التقليد الاجتماعي لنظام تعدد الزوجات.

وأظهر مشهد البقرة الوحشية صورة الأسى الدفين الذي يحل بالقبيلة والأم، على حين برزت الظباء والمها صورة للجمال الحسي الذي رغب فيه العرب.

وتنتهي الرحلة، وطول الصحبة لا تعرف المظنة، فالعرب ما تحدّثوا عن شيء إلا كان تجاه أعينهم لا يعنون سواه.

وسبحان من جعل لكل أمة شرعة ومنهاجاً.

حسين جمعة